ISSN: 2321-7928

تفسير تدبر القرآن

(تفسير سورة النساء)

- الشيخ أمين أحسن الإصلاحي[1]

ترجمة من الأردوية: د. أورنك زيب الأعظمي[2]

﴿30﴾

تفسير سورة النساء

22. تفسير الآيات (58-70)

وفي الآيات القادمة وُجِّهَ الخطابُ إلى المسلمين ثم أُمِروا بألّا يقعوا في العصبية القومية والدينية بعد أن يُعطَوا هذه الأمانة مسلوبة من اليهود وأنْ يضعوا العدل والحقّ نصب أعينهم دومًا. وليس هذا فحسب بل يعطى المسلمون الحكومة بجانب الكتاب والحكمة كما يُحمَّلون مسؤولية أمور الناس فليؤدوا حقوق العباد وأن يقسطوا في جميع أحكامهم وألّا ينسوا أنّ الربّ الذي حمّلهم هذه المسؤولية يسمع ويبصر بالأمور.

ثم دُلّوا على الطريقة التي إذا اختاروها جعلوا أنفسهم ثابتين ومستقيمين كأمة مسلمة، ويثبتوهم على جادة الحق والعدل ويحفظوا أنفسهم من الآفات التي يخلقها الاختلاف والنزاع، وكأنّ هذه تفاصيل تلك الأسس التي يبنى عليها نظام الحكم الإسلامي.

ثم لفتهم إلى مَنْ انضموا إلى جماعة المسلمين ولكنهم كانوا متذبذبين في وفائهم بالإسلام فلم تطمئن قلوبهم إلى إطاعة الله ورسوله وأولي الأمر منهم، وبما أنّ أيّ

[1] كاتب ومفسر هندي له مؤلفات عديدة ترجم البعض منها إلى العربية والإنجليزية

[2] مدير تحرير المجلة وأستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الملية الإسلامية، نيو دلهي، الهند

فتور في سقف الحكم الإسلامي قد خيف من قبلهم فذكرهم بالتفصيل. اتلوا الآيات التالية في ضوء هذا المدخل:

إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ﴿٦١﴾ فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾ وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ﴿٦٦﴾ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴿٧٠﴾

23- تحقيق الكلمات وتوضيح الآيات

إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ

بِٱلْعَدْلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾

لم تأت كلمة "الأمانة" هنا في معناها الضيّق بل جاءت في معناه الوسيع كما في الآية "إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...". (سورة الأحزاب: 72) فالحقوق والواجبات كلها حقوق الله كانت أم حقوق العباد، شخصية كانت أم جماعية، ذاتية كانت أم أجنبية، مالية كانت أم سياسية، متعلقة بالصلح أم متعلقة بالحرب تدخل جميعها في معنى الأمانة، لذا أول ما أُمِرَ المسلمون بعد إعطائهم مسؤولية الحقوق والواجبات بأن يؤدّوها حقًّا.

فإن تذكّروا مضامين هذه السورة المذكورة سالفًا فلا يصعب عليكم فهم أنّ هذه الهداية تحتوي إشارة إلى أنّ من سُلِبوا هذه الأمانة لم يؤدّوها حقّها، فدرجة الشهادة التي جُعِلوا عليها قاموا بإخفائها، والكتاب الذي أعطُوه قاموا بتحريفه، والشريعة التي حُمِّلوها قاموا بخلق الاختلاف فيها، والحقوق التي جُعِلوا أمينها خانوها، والواجبات التي أعطُوها لم يؤدّوها تمامًا، والعهد الذي أخِذ منهم لم يؤوفوا به لذا من مسؤولياتكم البدائية أن تؤدّوا هذه الأمانة التي حُمِّلتموها والتي تحوي الحقوق والواجبات المذكورة هنا.

مما يخيّل في أذهاننا كلمة الأمانة المذكورة لهذه الحقوق والواجبات أنّ هذه كلها أمانات حمّلكموها لأنّ موجبها هو الرب تعالى، وأنّكم ستسألون يومًا ما عن هذه الأمانات كلها بيد من جعلكم أمينها فإن خنتم فيها فلا يعصمكم عن بطشة الله شيء لا في السماء ولا في الأرض.

وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ الآية تفصيل جانب مهمّ للأمانة كما هو توضيح مسؤولية تربطها الحكومة؛ فمن يعطه الله تعالى قوة وحكمًا في الأرض فمسؤوليتهم الأولى هي أن يحكموا بالقسط فيما شجر بين ساكنيها. والقسط يعني أنه لا فرق بين الغني والفقير، الشريف والوضيع، الأسود والأبيض في أعين القانون فلا يكن القسط مما يباع أو يشترى، ولا يخلّه أيّ عصبية أو هوان ولا يؤثر فيه رأفة ما أو ضغط أو خوف والرغبة.

فمن يعطه الله حكمًا في هذه الأرض يعطهم لإقامة هذا القسط فالمسؤولية الكبرى هذا القسط ذاته فعند الله يعظم أجر الحاكم المُقسط كما يعظم جزاء العادل القاسط لذا نُبِه على أنّ هذه نصيحة عظمى يوجّهها الله تعالى إليكم فلا تهونوا في العمل عليها، وفي النهاية ذكر صفتيه السميع والبصير بأنّ الله يسمع كل ما تقول ويرى كل ما تفعل فلا يخفى عليه مهما تخفي من ظلم أو جور.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَـٰزَعۡتُمۡ فِى شَىۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩

والمراد بأولي الأمر أهل الحلّ والعقد في المجتمع الإسلامي فنظرًا لشؤون المجتمع ندخل فيهم العلماء وأهل البصيرة كما ندخل فيهم الحكماء والساسة فمن يحتل منصب هداية الشعب يطبق عليهم هذا اللفظ فإذا كان إمام أو خليفة فعمّاله أولوا الأمر وإذا لم يكونوا فيكون أولي الأمر من يفهم الأمور ويحاكمها. جاءت هذه الكلمة في مكان آخر من هذه السورة:

"وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ". (سورة النساء: 83)

الزمان الذي نزلت فيه هذه الآية لم تكن فيه الخلافة ولا كانوا أمراء وحكّامًا منتظمين فالمراد من أولي الأمر الصحابة الذين كانوا يبصرون في شؤون الدين والمجتمع ويرجع إليهم الناس في حين المشاكل، وكلمة الاستنباط هنا تدلّ على ميزة من ميزات أولي الأمر يظهر منها أنه لا يستحقّ منصب القيادة الدينية والسياسية إلّا مَنْ يملك البصيرة والاجتهاد فلا يأتي تحتها العرق والنسب والمال وما شابهها.

ولقد تناولنا لفظ "التأويل" في تفسير الآية السابعة لسورة آل عمران فآل يؤل أولًا

ومآلًا: رجع إليه وراجعه. ومنه التأويل رجعُ الأمر إلى أصله ومصدره، ومنه تأويل الرؤيا أي بلوغ كنه أمر وتفسير كلام وتوضيحه لأنّ في هذه الحالة يرجع الأمر إلى أصله ومصدره. وفي الآية المذكورة هنا جاءت كلمة "أَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا" والتي تعني أنّ رجع القضية المختلف فيها إلى الله أحسن وأفضل نظرًا لتحقيقه ومآله فعلم الله مرجع لكل علم وواقع، وذاته هي ملجأ ومأوى للكل وهي تملك الحكم الحقيقي.

وكل نظام اجتماعي وسياسي يتكوّن من الأمر والطاعة، وأما الإسلام فأمره والطاعة فيه يبنيان على ثلاثة أسس: الله والرسول وأولو الأمر، فالأولان منهم أساسان مستقلّان بالطاعة ولذا استقلّا بفعل "أَطِيعُواْ"، وأما طاعة أولي الأمر فهي تأتي ضمن طاعة الله والرسول لذا لم يخصّ بفعل "أَطِيعُواْ" بل عطف على السابق، وهذه دلالة على أنّ أولي الأمر وسيلة لإنفاذ أمر الله والرسول فلا تجوز طاعتهم إذا خالفوا ما أمر به الله ورسوله.[1]

فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ: التنازع في الشيء، والتنازع في الحديث، والتنازع في الأمر يعني، كما بيّنّاه في تفسير سورة آل عمران، الاختلاف في الرأي أي: تختلف آراء الاثنين في الأمر. والمحلّ يدلّ على أنّ المراد به هنا ذلك الاختلاف الذي يمكن أنْ يقع حينما يحاول الناس تعيينَ أمرٍ شرعي في قضية ما فمثلًا اختلف الناس في تأويل نصّ شرعيّ أو اختلفوا في أمر يجتهدون فيه فيمكن أن يقع هذا الاختلاف في تأويل آية من القرآن أو سنّة من الرسول أو في تعيين ما هو الأوفق بالكتاب والسنة في القضايا التي لم يرد فيها أيّ نصّ من القرآن والحديث، وكذا يمكن أن يكون هذا الاختلاف بين أولي الأمر والعامّة كما يمكن أن يقع فيما بين أولي الأمر أنفسهم.

[1] ولنعلم أنه لا تجوز طاعة أمر أحد مقابل أمر الله ورسوله ولكن الشريعة قد ذكرت شروطًا لمثل هؤلاء الأمراء الحكّام لا بدّ من معرفتها ولقد فصّلنا القول عنها في باب: حدود وشروط الطاعة" من كتابنا "الحكومة الإسلامية" (باللغة الأردوية).

وإذا وقع اختلاف من هذا النوع فأرشدت الأمّة لإزالته إلى أن تردّه إلى الله ورسوله ففقرة "فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ" تعني أنه إذا لم يكن أيّ إرشاد واضح عن هذا في نصوص الكتاب والسنة فتضع الأمة إشاراتهما وفحواهما ونظائرهما أمام أعينها ثم تحدّد ما هو الأوفق بالكتاب والسنة ثم تختاره. ثم قال إنّ هذه الطريقة أحسن تأويلًا فإنّ الأغلب أن يكون هذا الاختيار موافقًا لما يرضى عنه الله ورسوله ويكون الفصل عند الاختلاف طبقًا للأصل الذي هو المرجع في الإسلام والفقه والاجتهاد، وهذه هي طريقة الاعتصام بحاكميّة الإله والاعتصام بحبل الله في النظام الاجتماعي والسياسي، وهذا هو التوحيد الحقيقي.

وليعلم أنّ هذا الإرشاد وُجِّهَ إلى الأمّة كأمّة، ففي مثل هذه الإرشادات ولو يكون الخطاب عامًّا ولكن إنفاذه يعود إلى أهل الحلّ والعقد للأمة أو إلى أولي الأمر كما جاء في القرآن فيجب عليهم أن يرجعوا إلى الكتاب والسنة إذا اختُلِف في أمر ما وأن يختاروا ما هو أوفق بهما. وكذا اتفاق أهل الحلّ والعقد أو أغلبيتهم على أمر بأنه أوفق بالشريعة تحت إشراف الخليفة والإمام يسمّى الإجماع الذي هو طريق منصوص عليه لإزالة الاختلاف ولا تجوز مخالفته لأحد.[1]

وطريقة الردّ إلى الله والرسول هي أنه إذا أريد حكم الشريعة في أمر فليرجع أولًا إلى كتاب الله فإن لم يوجد فيه فليرجع إلى سنة النبي، وإن لم يوجد فيها أيضًا فالبحث عنه يأتي عن طريق الاجتهاد، وأما شروط الاجتهاد وآدابه التي بلغتنا عن النبي وصحابته ذكرت في كتب أصول الفقه، وهي فطرية وعقلية إلى حدّ لا يمكن لأحد يملك عقلًا أن ينكرها.[2]

[1] وقد فصّلنا القول على الإجماع في كتابنا "تدوين القانون الإسلامي" (باللغة الأردوية) فليراجعه من يودّ التفصيل في هذا الموضوع.

[2] وقد فصّلنا القول عليها في كتابنا "تدوين القانون الإسلامي".

يظهر من هذه الآية أنّ لسنة الرسول مكانة مستقلّة كمرجع لقانون الإسلام كما هي لكتاب الله لذا قال: "فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ" فالبديهي أنّ هذا الإرشاد يكون مقصوراً على النبي في حياته لأنّ وقوع مثل هذا الاختلاف يمكن في الغالب بعد وفاته صلّى الله عليه وسلّم فالآية تشهد أنّ هذا الإرشاد يتعلّق بالمستقبل نفسه. فالظاهر أنّ سنة الرسول هي التي تقوم مقامه بعد وفاته عليه أفضل الصلوات والسلام فلا يجوز أن نقرّ بأنّ أولي الأمر يقومون مقام النبي في زمانهم لأنهم قد حُذِفوا هنا فمعنى ذلك أنّهم لا مكانة لهم كمرجع للقانون فالمكانة المستقلة هي لكتاب الله وسنة رسوله، وليس هذا بل مكانة النبي جاءت لأنه جُعِلَ مسؤولًا عن تعليم وتبيين شريعة الرب تعالى ثم عصمه من أيّ خطأ لكي يؤدي هذه المسؤولية حقًّا فكأنّ الحكم الحقيقي هو لله فقط، وأمّا الرسول فهو وسيلة معصومة عن الخطأ لتعليم وتبيين أوامر الله وما يرضيه.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾

تحاكم إلى الحكم: تخاصم إليه أي تقديم أحدٍ قضيتَه إلى الحاكم. وقد مضى تحقيق لفظ "الطاغوت" في تفسير سورة البقرة. وهنا يقابله "تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ" مما يعني أنّ الطاغوت ضدّ كتاب الله وسنة رسوله، والبديهي أنّ هذه المكانة، حتى نزول هذه الآية، كانت يتمتّع بها زعماء اليهود في المدينة وضواحيها فمن كان يجتنب محكمة الرسول كان يتحاكم إليهم فالمراد من الطاغوت هم أنفسهم وهم ينطبقون على هذه

الكلمة بكل نواحيها.

هذا ذكر المنافقين بأسلوب يملؤه التعجّب (ويبدو من القرائن أنّ هؤلاء المنافقين ممن جاؤوا من أهل الكتاب) الذين يدّعون أنهم يؤمنون بالقرآن وبالصحف الأولى ولكنهم لا يتحاكمون إلى الله والرسول في قضاياهم بل يتخاصمون إلى زعماء اليهود ومحاكمهم والحال أنّ الله والرسول اللذين يدّعون الإيمان بهما قد أرشدا بصراحة أنّ الإيمان بالله ورسوله يوجب الإنكار بالطاغوت فلا يعبأ بهذا الإيمان إلا بهذا الإنكار. ولكنهم يحبّون أن يجمعوا بينهما إذ يريد الشيطان أن يضلّهم بهذا العمل عن الصراط المستقيم ضلالًا بعيدًا.

فقال إنّ الإيمان يتطلب منهم أن يتحاكموا إلى الله ورسوله فينحرفون اليوم بطريقة أو أخرى ولكنهم ماذا يفعلون إذا دهمتهم ساعة يعذّبون فيها لأعمالهم السيّئة فيهربون إليهم ويقولون بأيمانهم إنّ كلّ ما كانوا يعلمون ما كانوا يفعلونه على نية خاطئة بل كانوا يفعلونه نظرًا للمصلحة والنية الحسنة.

فالمصيبة التي تصيبهم تلك الساعة جاءتهم بحيث حينما رسخت قدم الإسلام وثبتت وضعفت قوة اليهود السياسية فأُمِرَ المسلمون بأن يغيّروا معاملة الصفح والإغماض عن المنافقين فغيّر المسلمون معاملتهم وجعلوا يحاسبون المنافقين في كلّ خطوة فقلق المنافقون بهذه الحالة الجديدة فلم تبق في اليهود قوة يشرفون بها عليهم ولا كان المسلمون راضين بمكرهم فلم يجد المنافقون مكانًا للتقدّم ولا موضعًا للتأخر وبالتالي فكان المنافقون يهربون إلى النبي وأقسموا بالله فحاولوا أن يوقنوهم أنما فعلوا من الارتباط باليهود وأثبتوا فضلهم على المسلمين في قضاياهم لم يفعلوه للإفساد بل أرادوا بذلك أن يفيدوا المسلمين وأن يضيّقوا الفراغ الذي يوجد بين اليهود والمسلمين وهكذا فكانوا يحاولون أن يخفوا نفاقهم في المصالحة وعبّروا عنه بألفاظ الإحسان والتوفيق ولكن لما انكشفت الوقائع فاتهم أوان هذا المكر والخداع فسيكشف فيما يأتي من

هذه السورة وكذا في سورة البراءة عما أوقع المنافقون من النقاب على وجوههم ولا يجدون مكانًا يخفون فيه وجوههم.

فظهر من هذا أنّ الاختلاف أو المصالحة مع المخالفين عملُ أهل الحلّ والعقد للأمة وزعمائها لا من أعمال شرذمة من الشعب، فإذا أراد أهل الحلّ والعقد للأمة الحربَ ضدّ قوة مخالفة وأنّ جماعة من الشعب يعقدون معها روابطَ الحبّ والصداقة ويسمّون عملهم هذا بصلاح الأمة وخيرها فهذا عمل سيّئ للأمة ونفاق لها.

ثم قال إنّ الله عليم بما في صدورهم، هل هذه عاطفة خلق حسن النية والترابط للأمة التي يجهدون لها أنفسهم أم هذا فساد النفاق وحبّ الطاغوت الذي لا يدعهم أن يخلصوا للإسلام ويطوون بين جنباتهم رجاء أن يغلب اليهود والكفّار فينجحوا في نفاقهم هذا. فقال: أعرضوا عن معاملتهم هذه، وعلّموهم الصحيح عن الباطل، وأخبروهم بما هو مفيد لهم بأسلوب يفتح آذانهم للسمع ويميل أفئدتهم للقبول.

فالتهديد الذي يوجد في "فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ" اشتدّ أكثر في "فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا" والمعنى أنّما يتخذه هؤلاء من المكر لنفاقهم هذا يعرف به لله خيرًا ففوّضوا الأمر إلى الله وأعرضوا عنهم هذه الساعة ولكن فهّموهم النافع عن الضارّ بأنّ ما يتّخذونه من الخطوات ستثبت خطيرة لهم في المستقبل. ولقد كتبنا عن لفظ "الوعظ" في مكان من هذا التفسير بأنّه يدلّ على الزجر والتنبيه أيضًا.

وكلمة "فِىٓ أَنفُسِهِمْ" في الآية: "وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا" تبيّن أنه ليبيّن لهم أنّ هذا الوعظ مفيد في حقّهم ولا تضرّ معاملتهم هذه بالإسلام شيئًا فالله يكفي بدينه حافظًا، نعم إنهم يفسدون أنفسهم. وكذا تبيّن كلمات "قَوْلًۢا بَلِيغًا" أنّ أسلوب النصح يجب أنْ يكون فاتحًا للآذان ومُلقّنًا للقلوب فقد أصبحوا صمًّا وأغبياء فلا يؤثر فيهم أسلوب النصح الكريم.

أُمِرَ النبي بهذا لأنه كان رؤوفًا للغاية وكريمًا جدًا عندما ينصح أحدًا ولو أنّ هذا الأسلوب كان ملائمًا لدرجة النبوة وكان قرّاعًا لمن له عقل وكرامة ولكن المنافقين ما كانوا جديرين بهذا الأسلوب الكريم ولا مقدّرين له بل كانوا يسيئون استخدامه وكانوا يتجرّؤون على أشرارهم كلّ يوم فأُمِرَ بألّا يرأفوا بهم كثيرًا بل آن الوقت أن ينبّهوا ويفهّموا الصالح عن الفاسد لكي يحذروا إذا أرادوا الحذر والنجاة.

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٦٥﴾

والآن تم بيان مكانة النبي الحقيقية بأنّ الرسول لم يبعث بأن يُقَرّ بقوله بل يبعث لكي يطاع فهو ليس مركزًا للعقيدة بل هو أيضًا مركز للطاعة فهو ليس بواعظ وناصح بل هو هادٍ يجب العمل على هداه فيبعثه الله كي يطيعه الناس في الأمور كلها لأنّ طاعته هي طاعة الله فمن يدّعي أنه يؤمن بالرسول ولكنه لا يقرّ بسلطانه السياسي أو يريد أن يحرّر نفسه عنه، دعواه للإيمان كاذبة.

وشرط "بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ" هنا يظهر أنّ الحاكم الحقيقي هو الله ولكنه وهب رسوله بإذنه منصب أمر الناس بشيء ونهيهم عن شيء وعصمه لهذا الهدف الجليل عن الخطأ فالرسول يكون مظهراً لحاكمية الله الشرعية والتشريعية، يكون الإيمان به وطاعته المخلصة عينَ الإيمان بالله وطاعته.

والبديهي أنه إذا كان الرسول مظهًرا لحاكمية الله الشرعية والتشريعية فلا ينبغي لمؤمن أنْ يترك محكمة الرسول ويتحاكم إلى الطاغوت في أمر من أموره فمن يفعل ذلك يظلم نفسه لذا فمعاملته هذه إنكار حاكمية الله وثم ارتكاب الشرك والكفر فقال

عن المنافقين الذين يتحاكمون إلى اليهود إنّ من ظلم نفسه فليس لإصلاحه ونجاته من عواقبه إلّا أن يحضروا إلى النبي ويعترفوا بخطأهم ويستغفروا الله ويستغفر لهم الرسول أيضًا ويشفع فيتوب الله عليهم ويرحمهم، ولا سبيل لتكفير خطيئتهم سوى ذلك.

ثم أقسم الله بذاته وقال إنّ هؤلاء لا يؤمنون حتى يحكّموك في كل نزاعاتهم كما يغيّروا أنفسهم بأن يقرّوا بحكمك بدون أيّ اعتراض ويفوّضوا أنفسهم إليك بدون أيّ سؤال، فطاعة الرسول هي طاعة الله فلن يمكن أداء حقّها بطاعة ظاهرة بل يجب لها طاعة القلب أيضًا.

ولنعلم هنا محلّ قسم "فَلَا وَرَبِّكَ"، لم يرد به التأكيد على طاعة الرسول الظاهرة والباطنة بل هو ردّ على قسم المنافقين الكاذب المذكور في الآية الـ62 بالقسم الصادق ثم ما يوجد في "وَرَبِّكَ" من عزاء للنبي عن طريق الالتفات إليه لا تمكن الإحاطة ببلاغته إلا لمن له ذوق سليم للعربية ولا يحيط بها هذا القلم العاجز.

وما ذكر من شرط استغفار الرسول لهم في "فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ" له جانبان: أولهما أنّ استغفار الرسول لهم كشفاعة لهم في الدنيا يمكن أن يغفر لهم ذنبهم العظيم هذا، وثانيهما أنّ تحاكمهم إلى الطاغوت مع محكمة الرسول بين ظهرانيهم تحقير بيّن للرسول فوجب أن ينالوا رضا الرسول ودعاءه، ولو تفكّر المنافقون لوجدوا فرصة ذهبية للتمتع ببركات الرسول ولكن أغلبيتهم لم يقدّروا هذه الفرصة وبالتالي فقد حرمهم الله منها فيما بعد. جاء هذا الحديث في سورة المنافقون كما يلي:

"وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٦".

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْۖ

وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾

والآن كشف القناع عن السبب الرئيس لنفاق هؤلاء المنافقين بأنهم ولو ادّعوا بالإسلام ولكنهم لمّا يتحرّروا تمامًا عن ربقات روابط الجاهلية القديمة كما أنهم مقيّدون حتى الآن بسلاسل الأسرة والنسب والقبيلة والقوم وأنهم مقيّدون بالوطن وعلاقتهم به ولذا أنهم يتخلّفون بدل أن يتقدّموا إذ الإسلام طلبه الأوّل أن يكسر المرء كافة السلاسل والقيود وينقطع إلى الله فحسب كمثل المهاجرين الأوَل.

ولنعلم أنّ هؤلاء المنافقين كان أغلبيتهم من اليهود أو قبائل ضواحي المدينة فلمّا رأوا بروز الإسلام وعلوّ كلمته اضطرّوا إلى إعلانهم بالإسلام ولكنهم، كما سلف، لم يكونوا يريدون أن يقطعوا علاقتهم باليهود والسادات المحليين ولذا كانوا يتحاكمون إليهم في أمورهم الداخلية فقام القرآن بكشف القناع عن ضعفهم هذا بأنهم إن يؤمروا بالقتال ضدّ إخوانهم وترك بيوتهم والانضمام إلى المسلمين فلا تجد أكثرهم إلا متخلّفين عن البروز إلى ساحة الحرب. وليراجع ما كتبناه عن "ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ" في الآية الـ54 لسورة البقرة والآية الـ29 لسورة النساء فالجهاد أولًا بلاء عظيم أصلًا ولكن إذا أجبر المرء أن يسلّ السيف ضد من له قربى معه ومن أشربت عاطفة حمايته في دمه فيزداد هذا البلاء شدةً لأنّ السيف، في هذا الوضع، كأنه يسلّ ضدّ المرء نفسه ولكنّ الإسلام لا يولي اهتمامًا بالدم والنسب مقابل الحقّ فيضطرّ المرء المؤمن إلى المرور بهذه المرحلة اجتياز امتحان الوفاء بالرب. ويشهد تاريخ الإسلام بأنّ سيف الخال في غزوة بدر سُلّ مقابل ابن أخته كما سلّ سيف العمّ مقابل ابن أخيه وانمحت روابط العصبية الجاهلية مقابل الحق.

ولقد لُفِتَ المنافقون إلى هذه الحقيقة للإسلام بأن يخلوا أنفسهم عن قيود الأسرة والقبيلة والبيت ويخلصوا للإسلام فينضمّوا إلى مجتمع المسلمين فيكون هذا خيرًا لهم ودعمًا لثبات أقدامهم في سبيل الإسلام، وإذا دخلوا في البيئة الطاهرة خارجين عن البيئة الفاسدة فيزول ضعفهم ويخدموا الحق موفين بالرب منضمّين إلى فدائيي الإسلام.

ثم شجّعهم فقال: لا تظنّوا أنّ هذا سبيل الهلاك والانتحار فإن يتركوا بيوتهم لله فيؤتيهم الله أجرهم من عنده ويهديهم إلى الصراط المستقيم فمن ينقطع عن كل جهة ويقم لطاعة الله ورسوله يدخلهم الله في عباده المنعم عليهم- الأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين- وما أنعم من يوفّق لرفقة هذه الجماعة المكرّمة. هذا فضل الله والله ليس بغافل عمّن يستحقّ فضله العظيم هذا فمن يهاجر لنيل هذا الفضل ويجاهد في سبيله فليقتنعوا بأنّ الله لا يضيّع تضحياتهم.